سحر الخاتم

استعار سيارة معروضة في جناح أخيه فقال له:

-اختر أية سيارة لأهديك اياها في يوم عرسك..

ضحك قائلا: "لن أكون بحاجة الى سيارة، فسيارة الدولة تكفيني.."

ذهبنا الى مقهى في دمّر، فما كان قد تغذى بعد، وبينما كان صاحب المطعم يعد لنا طبقا من الضفادع التي آكلها لأول مرة، كنا نتمشى ونقف عند شلال، ونتحدّث عن أسرتنا المقبلة، وكم من الأطفال نريد أن ننجب، وفي طريق العودة مررنا ببيت مزارع من أصدقاء عائلة عفيف القدامى. قال ونحن ندقّ الباب الخشبي الكبير القديم:

-سنرى ماذا فعل الله به!

كانت مفاجأة كبيرة للرجل الشيخ اذ رآنا، ما أجمل الطريقة التي يرحب فيها عفيف بالناس ويرحبون به!

جلسنا على ديوان قديم تحت عرائش الياسمين وهرع الرجل ليقطف لنا من ثمار البستان الناضجة في ايلول، وغرقت عيناي في ألوان الخريف الباهرة المتماوجة بين الأخضر الزمردي والأحمر القاني، وبلغ سمعي هدير النهر المختفي بين الأشجار، وصفير القطار وخفق قلبي ووشوشة عفيف وهو يهمس لي من فوق كتفي..

-لوتدرين كم أشتهي أن يكون لنا بيت ونكون فيه!

ولم ألتفت اليه.. كانت رؤى الحب تتوهج في مخيلتي وحنيني اليه يوجع قلبي، وطفرنا الى ممر عرشت عليه الكروم وتدلت منه عناقيد ناضجة كبيرة الحبات ومددت يدي لأقطف حبة فلم أطل، فحملني وقطفت عنقودين بأسناني، وسرنا معا ضاحكين نأكل الأعناب، واخترقنا حقلا صغيرا من الذرة وكان هدير النهر يتعالى دون أن نراه فأمسك بذراعي خوف أن تزلق قدمي في مستنقع أو حفرة، كم أحب البساتين الوحشية النسق! قلت له:

-سأختار لك بيتا ذا حديقة، في مكان مشرف على الغوطة.. دلني صديق لي على بيت وأعجبني، لم يكتمل بعد وبحاجة الى دهان..

سمعنا صوت الشيخ من أعلى احدى الأشجار يحذرنا من أن نقترب كثيرا من مجرى النهر، ثم نزل وهو يحمل في رقبته كيسا من الخام ممتلئا بالفاكهة، وسار معنا في أرجاء البستان الفسيح، وكان يتحدث وعفيف عن ذكريات ماضية للعائلة، ولم أكن أصغي اليهما بقدر ما كنت أصغي الى زفزفة الشجر وهدير الماء وصفير الزيز وغمغمات روحي النشوى المستوهلة من الطبيعة المتوحشة والعتمة والحياة الغامضة المقبلة عليها..

وحين عدنا من ممر العناقيد كان "لكس" يسطع على مائدة قرب الديوان وينير طريق الممر، وعلى المائدة مفرش وصحاف، وهنف صوت امرأة من وراء حجاب تدعو أبا محمد ليحضر لها معه بندورة، والتفت عفيف الي وقال: "الجماعة لن يتركونا نذهب دون عشاء".

-ليتك اعتذرت، اننا لم نهضم بعد طبق الضفادع.. وأردفت بقلق: "وأنا لا أستطيع أن أتأخر"

غير أنه لم يكن هناك بد من أن أتأخر، ولما عاد بي عفيف الى منزل صديقتي وجدتها وأختي في قلق ووساوس وغم وظنون عكرت مساءهما.. ووجدت العشاء على حاله لم تمتد اليه يد، وتضاحكت أحاول إخفاء خجلي وقلت وأنا أتعثر بالكلمات ولا أدري ما أقول:

-ولكن لم؟ لماذا؟ صغيرة أنا؟ حمقاء لا أعرف كيف أتصرف؟

تبدلت مشاعري فجأة وأحسست بالغضب، انني أريد أن أغني ذكريات تلك الأيام القليلة العذبة، وأزداد خبرة بالرجل الذي اخترته كي أعيش واياه حياتي كلها، ولكن ها أنذا أفاجأ بتلك المخاوف التي لا مبرر لها.. قلت: "الرجل الذي يخدعني لا يخدع الا نفسه!" وأردفت وأنا أتمثل الوجه الصريح النبيل: "ولا أعرف قيم الرجال اذا كان عفيف بالرجل الذي يتسلّى ويمضي!

ولكن صديقتي وهي أعرف مني بالمجتمع أصرّت عليّ أن ألبس خاتم الخطوبة حتى لا يلسنني الناس اذا رأونا معا..

ضحكت لما يحمله الخاتم من سحر في كمّ الألسنة المشرعة، وتطمين القلوب الواجفة..

–لماذا؟ ان الأمر غريب حقا، ان عفيف يجد في تلك الأيام القليلة التي ننتظر فيها الإذن بالزواج دهرا بكامله، انه يذهب بنفسه ليلاحق لي عملية تغيير الجنسية، ويبحث في لهفة عن منزل لسكننا..

قلت له باسمة:

–الناس لن يتركونا ننتظر هدية صديقك أنور ياعفيف.. انهم لا يدركون معنى للخطوبة دون خاتم!..

ضحك وهو يلوح لسيارة أجرة عابرة فتوقفت، وقال للسائق ونحن نستريح في المؤخرة: "اذهب الى سوق الحميدية"..

ترجلنا عند مدخل السوق وسرنا على مهل يدي بيده، يتدافعنا الناس في ذلك السوق المغطى الطويل المتشعب، وواجهات المخازن تطل علينا بما تحار فيه العين من بضائع متنوعة، استلقت في نسق بديع تحت أضواء الكهارب، وكلت منا الأقدام ونحن نسير..

قال وهو يخرج من سوق ويدخل آخر –ان لم تخني الذاكرة فان سوق الصاغة عند هذا المنعطف..

دلفنا الى محل صائغ، وطلب عفيف خاتمي خطوبة له ولي، وجرّب واحدا فانسجم في اصبعه، وأخذ الصائغ يحفراسمي عليه وتاريخ الخطوبة، وجربت أنا اثنين، كان الأول صغيرا وانسجم الثاني في خنصر يدي اليمنى، ولكن الصائغ لم ينتبه وحفر اسم عفيف على الخاتم الأول، ولما جربته كان من المستحيل أن يدخل من عقدة اصبعي، ولكنه انسجم بسرعة في خنصر يدي اليسرى..

ضحك عفيف وقال: "أترين؟ ان الخاتم يأبى الاّ أن نسرع بالزواج..

ووضع خاتمه في اصبع يده اليسرى وقال:

–أصبحنا زوجين يا يسرى!..

* * *